أسامة بن منقـــــــــــــذ

أندريه ميكـــــــــــل
الأستاذ في (الكوليج دوفرانس)
باريـــــــــــس

إن حياة الأمير العربي السوري ، أسامة بن منقذ ، مقضيّ عليها بالحـــــــــروب الصليبية ، من ابتداء هذه الحياة إلى نهايتها .

قلت : من بدايتها ، وهذا أنه ولد في السابع والعشرين من جمادى الثانية لسنة ٤٨٨ للهجرة ، الموافق للرابع من يوليو ١٠٩٥ للميلاد ؛ أعني أربعة أشهر قبل أن يبشــر البابا الثاني بالحرب الصليبية الأولى في الكنيسة الجامعة لمدينـــــــــة Clermont Ferrand ، في وسط فرنسا . بعيدا عن فرنسا ، لم تــــزل إمارة "شيزر" الصغيرة تقوم بدورها ، على ضفة العاصي . تحـــرس الامارة ـ ضد الروم وأيضاً ضد الخلفاء المصريين الفاطميين ـ الجادة التي تمر مـــن وراء الجبال وبعيداً عن ساحل البحر ، وتراقب المواصلات بين أناضولية ومصر، الجـــادة الأساسية ؛ جادة كل المجتاحين ...

هاهم الإفرنج في الشرق الأوســط قريباً من "شيزر" : في أنطاكية . كـــان في التاسعة من عمره حين لازم أبـــاه المقاتل المصاب بجروح خطيرة . ولكـــن "شيزر" تقاوم وتصرّ في الثبات ، بقواهـــا وحدها أو بمعاونة الموصل ودمشق .

هكذا يتعلم "أسامة" الشاب المحاربة، إلى جانب أبيه وفي أوقات سكوت الحـــرب حيث القنص والصيد ، الصيد الحقيقـــي، للطيور والأرانب والغزلان فقط ، بل للوحوش وهي الخنازير البرية ، والضباع والنمـــر وخاصة للذي اسمه اسم الفتى :"أسامـــة" الأسد . في سنة ١١١٩ للميلاد ، للمـــرة الأولى ، يقود "أسامة" بنفسه جيشاً للمعركة وهو ابن ٢٤ عاماً .

هذا هو الزمان الذي تشرق فيـــه نجمة جديدة في سماء الإسلام ؛ أعنـــي "زنكي" ، صاحب الموصل وحلب وحمـــاة "زنكي" الذي استأنف مقاتلة الإفرنـــج بكل قوة وعزم . في نفس الوقت ســاور حزنٌ شديدٌ "أسامة" بسبب جفاء عمـــه صاحب الإمارة له ، حيث إن "أسامـــة" غادر مدينته وقدم خدماته "لزنكـــي"! كان الى جانب "زنكي" في سنة ١١٣٨ ، أثناء الهجوم الكبير الذي جمع الروم وإفرنـــج القدس وانطاكية وطرابلس ومسلمي جمـــع الذين أنقذهم الصليبيون ، في السنـــة السابقة ، عندما كان "زنكي" يعاصـــر مدينتهم . بعد فشل الهجوم ، وبعـــد أن رجع "أسامة" إلى "شيزر" في هذه المناسبة رحل بطلنا من "شيزر" بصورة نهائيـــة . كان أبوه قد مات قبل سنة . هكـــذا انقطعت عرى الروابط كلها بين "أسامـــة" وبين ماضيه وعمه و"زنكي" أيضـــاً . فذهب "أسامة" بعائلته الى دمشق التـــي تسيطر عليها دولة تركية : البوريـــون في هذه الأيام ، صارت دمشق الوطـــن الثانـــي .

ان هذه المرحلة مرحلة قاطعـــة في حياة "أسامة" ، لأن البوريين ،وليتقوا

عداء زنكي ، عقدوا اتصالات وثيقة مع الداوية Les Templiers في القدس . وكان "لأسامة"، هذه السلسلة من المهمات والإقامات في فلسطين التي عادمنها بذكرياته عن الإفرنج وعاداتهم . في دمشق نفسها ، تدخل "أسامة" في شؤون السياسة الداخلية ، مما أثار عليه العداء والدسائس ، فطلب عليه الإبعاد والمنفى . في سنة ١١٤٤ ، سار نحو مصر حيث الخلفاء الفاطميون.

في عهد هذه الدولة ، وفي انحطاطها ، وجد "أسامة" مكانه ودوره . أعاد المشاركة في السياسة واللعب الكبير الذي ينصب ويعزل أرباب السلطة هو ذو إقطاع زاج (كما قال) ، هو من أركان الحكومة ، هو عضو من أعضاء البعثة لدى ابن "زنكي" وخلفه : "نور الدين" الذي وحد مصر وجعل نفسه بطل النضال ضد الإفرنج . ولكن ، بعد قليل ، تفاقمت الحالة : فقد "أسامة" أمواله وشرفه ، فلا بد له من الفرار العاجل . ولحسن حظه ، أمامه دمشق مرة أخرى ، وفي دمشق ، "نور الدين"، العاهل الجديد : في شهر ربيع الثاني ٥٤٩ (يونيو ١١٥٤) استقبل الطريد استقبالاً حاراً وهش في وجهه وبش .

ستدوم هذه الإقامة الجديدة عشر سنوات نرى فيها "أسامة" مساهماً في حملات "نور الدين"؛ على الأقل في بعضها ، لأنه يطعن في السن ، ومع ذلك ، لايتحمل الشيخوخة القادمة . في سنة ١١٥٧ / ٥٥٢ ، بلغه النبأ المحزن الكبير : الزلزلة التي خربت سوريا الشمالية وأولا مسقط الرأس: انهارت قلعة "شيزر" ـ قلعة الأسرة القديمة ـ على أهلها وقتلتهم . جاءت اذا ساعة التفكر والحسابات ، فانتهج "أسامة" طريق الحج ، وعن طريق حلب والموصل وبغداد في سنة ١١٦٤ / ٥٥٥ ، أسر المسلمون ، في معركة حامية الوطيس سادة أنطاكية والرها وطرابلس. هناك ، بين الظافرين ، صديق "أسامة" واحدٌ من أصدقاء الزمان القديم ، رجل" تركيٌ"، من الأسرة الأرتقية المقيمة بحصن "كيفا"، في وادي دجلة الأعلى . دعا هذا الأمير ، "قرا أرسلان"، "أسامة" إلى مصاحبته حتى بلاده ، فلبى الدعوة كيف لا وهو (كما قلت) مائل الى الشيخوخة والتعب ... والضجر ؟.

مرحلة جديدة ... و ـ مرة أخرى ـ لعشر سنوات ، وأساسية ـ هذه المرة ـ لعملٍ آخر : الكتابة . هذا هو زمان تأليف (أو تكميل) كثير من الآثار الأدبية في الأجناس المختلفة؛ التأريخ والأخبار والبلاغة والسياسة وعلم الأحلام . وتصور "أسامة" في نفس الوقت مشروع تأريخ حياته ومخططاته . ونظم قصائد وجمع الأشعار المنظومة في الماضي ورتب ديوانه . في أوقات الفراغ والقوى الكافية ـ صادٌ وسافر : إلى الموصل وأرمينية . وشاهد من بعيد انتصارات "صلاح الدين" على الإفرنج أولاً، ثم على الفاطميين الذين ألغى خلافتهم في سنة ١١٧١ . مات "نور الدين" ووفق "صلاح الدين" في توحيد سوريا ومصر لفائدته . كان "أسامة" قد أرسل إليه قصائد تمجيد ، فاستدعاه "صلاح الدين" في الأيام الأولى لشهر أكتوبر ١١٧٤ وهو قريب من العثمانين ، فورد "أسامة" إلى دمشق ، للمرة الأخيرة .

ياحسرتاه ! إنه في الكبر الآن ، بكل معنى الكلمة ، وينظر إلى "صلاح الدين" الراحل إلى العرب من دونه ؟ إلى "صلاح الدين" الذي ـ شيئاً فشيئاً ـ وربما

عن تعطفه على الشيعة . وخاصة لايستسلم "أسامة" للنظرة التي يلقيها على جسمه وروحه : لايفيد أحداً ولايستفاد منه شيء . عبثاً يجمع حوله الأدباء . عبثاً يدرس ، عبثاً يصادق مؤرخ "صلاح الدين" المشهور ، "عماد الدين الأصفهاني" . عبثاً كل هذا ، فإن "صلاح الدين" ازداد جفاءً ويقسم وقته بين دمشق ومصر ، ذاهبا الى القاهرة مع ابن "أسامة" الحبيب ، "مرهف" . لاتبقى إلا سلوة أو مأساة : تأريخ حياته التي كرس لها هذه السنوات الأخيرة . ويبقى ، على كل حال ، قد فرح ، فرحا حقيقيا ، وأثناء استرداد القدس في سنة ١١٨٧ .

أرسل "أسامة" قصيدة "لصلاح الدين" احتفالا بالنصر ، فلم يجب هذه المرة ، لم يبق شيء الا انتظار الموت ، فجاء الثالث والعشرين من رمضان ٥٨٤ (١١٨٨ 15 Novembre 1188) . دفن "أسامة" اليوم التالي ، على ضفة قناة من القنوات المشتقة من نهر بردى ، على سفح جبل قاسيون . في القرن الثالث عشر ، مر "ابن خلكان" المؤرخ بهذا الموضع وصلى على القبر .

هنا ، في "أسامة" ، رجلان : البطل الملتزم والكاتب ، وفي كل واحد منهما مشكلة . كان الأول رجل الحرب والسياسة والدبلوماسية وكانت مواجهة الإفرنج الشيء الأهم في حياته . يدل على ذلك أن هذه الحياة ـ التي كادت تبلغ مائة سنة ـ طابقت ـ مطابقة تامة وبصفة رمزية مثالية ـ القرن الأول للحروب الصليبية ، حتى هذا الحادث الأساسي الذي هو استرداد القدس . إن موقف "أسامة" من الإفرنج قد اختلف : كان تارةً سفيراً وصديق الداوية ، وتارةً عدواً صريحا مدججا بالسلاح . ونتحقق من نفس التذبذب لا في الحقيقة فحسب ، بل في صورة الإفرنج التي تصورها "أسامة" ونقلها إلينا . أهذه الصورة متعاطفة أم معادية ؟ لم تنته المناقشات في هذا الموضوع ولم يزل كل واحد من الطرفين يقدم حججاً ضد الإفرنج أو للدفاع عنهم . ماهي الحجج ؟ .

لصالح الإفرنج ، أولاً ، بعض التسامح ، بعض الحرص على معرفة الغير بينته لنا حكايتان ، على الأقل . فلنذكر هذا الفرنجي الأنطاكي الذي دعا مسلماً إلى مائدته وقال له : " لاتخف شيئاً ، فان طابختيّ مصريتان ولم يدخل لحم الخنزير بيتي " فلنذكر "أسامة" بنفسه كشاهد عيان هذه المرة . أذن له الداوية بالصلاة في كنيسة صغيرة ، في ركن من أركان المسجد الأقصى المحتل ، فأراد فلان أن يمنعه ، فطردوه ودعوا "أسامة" إلى مواصلة الصلاة في نفس الملف : إعجاب "أسامة" بروحية الفروسية وتنظيمها ، وافتخاره بأن الداوية أطلقوا عليه لقب الفارس . وأكثر من ذلك يشير "أسامة" الى قوة الهيئة ومجدها ، لدرجة أن الملك نفسه يخضع لمقررات مجلس الفرسان ، وان خالفها . وخاصة : يتعرض أسامة للبسالة التي هي مزية الإفرنج الطبيعية الاستثنائية المثالية المطلقة ، غير أن تقديره مختلط ببعض التحفظ : هذا ان الصليبي شجاع بلا تفكر ، على غرار الوحوش بيد أن الجرأة البحتة واقعة في الصحو والتغلب على الخوف باسم الشرف الشخصي .

ضد الإفرنج : كلمتان : الوحشية ـ وحشية الأشخاص ـ والعادة ـ والحماقة : حماقة العلم المزعوم ، على رأسه الطبيب الذي كثيراً ما لا يشفي ، بل يقتل ، حماقة الحياة الاجتماعية التي تترك المرأة طليقة من أي قيد ، حرة لكل ما تشاء ،

حماقة الحياة العائلية التي قلما يترادف فيها الشر الذاتي والشرف الزوجي ، حماقة الدين أي عبادة صور المسيح ومريم. تجلى هنا ، في هذا الميدان الجوهري الشعور بالتفوق الأساسي على الإفرنج.

يوجد هذا التخالف بين مناقب الإفرنج وعيوبهم في كل موضوع. ذكرت مثلا البسالة التي يعترف بها "أسامة" ولكن ببعض الانتقاد . هاهو مثل آخر في موضوع النساء . كان "أسامة" محتفظا بكل الحياء لديهن ، غير أنه – في مناسبة على الأقل – يتساءل عن الحقيقة الحقيقية ، بإنسانية مؤثرة . كان في "صور" ورأى فرنجياً يخرج من الحمام وبرفقته امرأة متحجبة ، فأظهر تعجبه ومفاجأته وسأل الرجل عن أسباب حضور هذه المرأة في الحمام ، فأجاب الفرنجي " نعم هي امرأة ، هي ابنتي ، ماتت أمها فلم يبق لها أحد كي يغسل شعرها فجئت بها الحمام لغسل شعرها " فقال "أسامة" " أصبت ، وأجرتك عند الله " .

إذاً ، تعطف أم لا ؟ اذا عرضنا المشكلة بهذه الصورة ، أعني بالمقارنة البسيطة بين ما للإفرنج وما عليهم سنعدو إلى المأزق . لكن مقاييس الحكم بينة والغريب أنها ماتت ، زماناً طويلاً فطنة الباحثين . يكفينا النظر الى التأريخ أما المقياس الأول ، فسيقترحه "أسامة" بنفسه علينا – كما قال – أن نميز بين إفرنج الجيل الأول الذين تعودوا على الشرق ، مادياً وروحياً ، ويعرفون عادات البلاد ويحترمونها ويسنونها أحياناً ، وبين الآخرين الذين لاعهد لهم بشيء إلا سب الجهالة والغطرسة .

أما المقياس الثاني ، فلنستنبطه من تأريخ "أسامة" الشخصي . كلما يتحدث عن الإفرنج ، علينا أن نتساءل : إلى أي وقت من حياته يرجع الحادث المشار إليه ؟ من جانب : أيام السلم أوالمهادنة في فلسطين ، بمناسبة الهجمات لدى الداوية ، وبشيزر ، عندما ألقت الحرب أوزارها ومكنت الجيران من المواصلات والزيارات ، في هذه الأوقات ، هدأت النفوس وبدا الحرص على التقدير من دون تحيز . ومن الجانب الآخر ، أيام الحرب ، في "شيزر" أيضا ، وفي كل مكان من مصر ، الفاطميين الى سوريا "نور الدين" و"صلاح الدين" : من المنتظر هنا أن تضعف الشفقة على العدو وتزداد شكاسة الحكم . لاكتشاف المقياس الثالث ، فلنلتفت الى التأريخ ، التأريخ بمعناه الواسع ؛ أعني تأريخ القرن الأول للحروب الصليبية . نرى فيه أن المسرح السياسي قد اتضحت شيئا فشيئا ، حتى الوضوح المطلق . قبل "نور الدين" و"صلاح الدين" ، كانت سوريا منقسمة إلى إمارات صغيرة متنافسة محتاجة إلى التحالفات ، التي تطلبها من كل سلطان ممكن وحتى من الإفرنج . كل ما دار فيما بعد غني عن التعليق : مقصد السياسة الآن هو ضم البند السوري (ومصر أيضا اعتباراً من عهد "صلاح الدين") تحت سلطة واحدة وتحت راية الاسلام السني ، ضد العدو الواحد المعين : الإفرنج . من ثم ، تطور "اسامة" ، الذي التحق بهذا المشروع الوطني ، منذ الأول وبكل حماسة . إن كتابه واضح ، تمام الوضوح ، في موقفه . فإن المعطيات المتقطعة الموجودة هنا وهناك في كتابه ، المتعلقة بحادث ما ، يمكنها أن تتردد في الرأي ولكن تغيرُ الحلم على الإطلاق في الباب المخصص للإفرنج المعنون بهم ، الذي أملاه "أسامة" في نهاية حياته وبتأمل الأشياء. هنا في هذه المنطقة من الكتاب ، تسود الصراحة الطبيعية تجاه الذي أصبح ، في

النهاية وبفضل "نور الدين" وخاصة "صلاح الدين"، العدو الواحد الحقيقي للإسلام وهو الإفرنج .

فلنتحدث الآن عن الكاتب . يبدو أن "أسامة" ورث عن أبيه - الى جانب هوى الصيد - هوى الكتابة . ولكن هنا فرقاً كبيراً بينهما . قضى الأب جميع حياته في نسخ القرآن وأمر بنيه أن يدفنوه مع الثلاثة والأربعين مصحفاً التي قد نقلها بيده . أما "أسامة"، فإنه متعبد ولكن من دون مبالغة ؛ ما قام بالحج الا وهو ابن خمسة وستين عاماً . لايعتبر الكتابة ممارسة دينية ، بل تتمة أو تسلية لحياته الملتزمة . وفي الواقع ، ألف كتباً جزيلة ، حتى في الشكل الأعلى لهذا الفن ؛ أعني الشعر . هو ، في رأي المترجمين المُجْمِع ، واحدٌ من أمراء الأدب . وأمير مبتكر جداً . يدلنا عليه ديوانه وسيرته الذاتية .

فإن قوام - هذين الكتابين - متأس على موضوع واحد وهو مشي الزمان، الكبر المقبل ، كما قال في قصائد شتى :

لم تترك السبعون في إقبالها
مني سوى مالا عليه مُعَوَّلُ
حتى إذا ما عامها عني انقضى
ووطئت في العام الذي يستقبل
حَطَمَتْ قواي وأوهنتْ من نهضتي
وكذا بمن طلب السلامة تفعلُ
كم قد شهدتُ من الحروب فليتني
في بعضها من قبل نكسي أُقتل
والقتل أحسن بالفتى منْ قبل أنْ
يبلى ويفنيه الزمان، وأجمل
وأبيك ما أحجمت عن خوضي الردى
في الحرب ، يشهد لي بذاك المضل
وإذا قضاء الله أخَّرني إلى
أجلي الموقت لي فماذا أعمل ؟

(وهذه ترجمتها ، للأصدقاء

Saixant et dix années n'ont laissé en chemin
De tout ce qui fut moi qu'un rest sans defense .
De la dernière en date ayant vécu la fin
Et mis en pied déjà dans l'autre qui l'avance,
Toutes forces rompues, épuisé, je defaille :
On rêve d'échapper aux ans, on les subit .
Fallait - il voir hélas ! tant et tant de batai lles
Et n'y mourir Jamais et finir décrépit ?
Pour un homme d'honneur, mieux vaut la mort en guerre
Que de se perdre au temps , de l'user , sans éclat .
Je n'ai jamais, jamais , fui la mêlée meurtrière,
Toujours me suis battu : mon sabre le dira .
Mais si l'arrêt de Dieu tarde trop, et n'abrège
Les années qui me sont imparties, que ferai - je ?

هذا هو الوحي الأساسي للديوان وللسيرة الذاتية . المسألة هنا ، مسألة الزمان السائل وخاصة تقلباته ، غير أن هذه التقلبات ، كما نسميها عادة ، هي القدر وقضاء الله . عندما يكلمنا "أسامة" عن حياته ، يريد ، في الواقع أن يشير الى القدر والموت العامل في الحوادث والأشخاص التي لاقاها من أول حياته إلى نهايتها. من ثم عنوان الكتاب : كتاب الاعتبار (أي : كتاب القدر والموت من خلال تجارب الإنسان) .

ولكنْ ، من وراء كل هذه الأمثال ، لاريب أن المثل الأحسن هو "أسامة" نفسه ، كأنه قال لنا ، بل : قال لنا بالفعل : إن العجيبة السخيفة ، هي في هذه الحياة المكرسة للصيد والحرب ومخاطر السياسة ، هذه الحياة التي من المنتظر أن تعرضني للموت ، مائة مرة ، والتي في الواقع أطالت أمدي وقضت علي بالموت في الفراش ، وأنا في الحلقة العاشرة من عمري ، راكد ، كسيح ، مصاب بمرض الأمراض : الشيخوخة " .

نحن الآن أمام السؤال : عمن وعما أراد "أسامة" أن يتحدث. عن تأريخ معاصريه ، أم عن تأريخ حياته ، أم عن تأريخ حياته ، أم عن نفسه ؟ هل ، بعبارة أخرى ، نحن هنا إزاء ترجمة ذاتية ؟ بصفة رسمية يتأسس هذا الجنس ، (أعني السيرة الذاتية) على حكاية حياة شخصية فردية ، لاتعطي الكتاب مفاده فقط ، بل مشروعه . ولم يظهر هذا الجنس في الآداب العالمية قبل "روسو" الذي نرى اختلافه عن القديس مثلا ، وما اعترافاته التي لايبدي فيها الكاتب شخصية إلا في حوادث وأحوال لاترمي إلى إلقاء النور على فرد ، بل إلى تجلية عمل الله في هذا الفرد . بل كما هو الشأن في الغرب ، كذلك ، في الشرق ، لايليق الحديث عن باستثناء الشعراء.

أما النثر ، فإنه لايدخل الأنا إلا وعامل ولافظ بالنسبة الى تقديم حقيقة وتبليغ عبرة أو العموم - أشياء ربما تمر بكم ، ربما تقضي بتفكيركم وحياتكم الفردية ، ولكن تتجاوزكم إلى الغير . هذا هو الموقف الذي اتخذه النثر العربي الكلاسيكي ،والمؤلفات النادرة التي نسميها سيراً ذاتية لاتستهدف - من خلال خياة - إلا إبراز الغاز عامة (كما فعل "أسامة") أو تقديم لائحة الأساتذة والدروس الملقنة (كما هو شأن ابن خلدون) . لابد إذاً من مراعاة الآداب ، أي : لايتكلم الكاتب عن نفسه إلا إذا أراد أن يكلم إخوانه ويقول لهم - من وراء نفسه - شيئاً أعم قد يهم الكل .

ولكنْ ، بعد ما راعى "أسامة" الآداب وختم كتابه بالدعاء ومدح "صلاح الدين"، أعاد الكتابة لسلسلة من حكايات أخلاقية : لاشيء هنا متعلق بالسيرة الذاتية . لماذا هذه الإضافة؟ باحتياط وتمهيد السبيل لما يلي . وفي الواقع، بعد ختام آخر ، هنا كتاب جديد ، عن ذكريات الطفولة والشباب ، في البلد المحبوب ، بلد العاصي ، في ظل الحنان إلى الأب : هذه هي الترجمة الذاتية ، والبرهان على ذلك أن "أسامة" - في هذه المنطقة من الكتاب - لم يعد يستند إلى مغزى الصفحات السابقة ، إلى الاعتبار ، بل يتكلم لمحض متعة التكلم عن نفسه .

لاشك أن هذه الرغبة شديدة ،لدرجة أنها تتجاسر نواهي الكتابة والمجتمع لاشك أن "أسامة" شعر بوقاحتها ، حيث إنه استغفر الله لتهوره ، في الختام

الحقيقي لكتابه . على كل حال ، في هذه الصفحات الأخيرة ، خلف لنا "أسامة" أثراً وحيداً في الأدب العربي الكلاسيكي : سيرة ذاتية ، نعم ، صادقة فردية بكل معنى الكلمة . وأكثر من ذلك : تأليفاً ينتشر روحه إلى الخلف ، إلى سائر صفحات الكتاب الذي يصبح كله سيرة ذاتية من أوله إلى نهايته ، سيرة ذاتية بجميعها ، سوى عنوانها .

علينا أن نختم الآن . كيف نقرأ "أسامة"؟ أولا بالنسبة إلى هذه الحروب الصليبية التي اتسعت لميدان حياته كله . وهنا مفاجأة : إن الإفرنج في كتاب الاعتبار ، لايسمون غرباء ولا صليبيين (أبداً) . إذا قال "أسامة" : فرجع الإفرنج إلى بلادهم " بعد غزوة على "شيزر" ، ما قصد أوروبة ، بل بلاد أنطاكية . ماذا نقص الإفرنج لمكوثهم في الشرق ؟ كانوا محتاجين مثل الأتراك ، ولكن الأتراك أسلموا وفيما بعد استعربوا . من جانب آخر ، كان يوجد منذ الأزل ، في الشرق ، في بلدهم ، مسيحيون . أمام كل هؤلاء الشرقيين ، ما أراد الإفرنج اعتناق الإسلام ولا الاستعراب ولا تبني العادات المحلية ، على التمادي. ماذا بقي لهم إلا الرحيل إلى بلادهم ؛ أعني ، هذه المرة ، أوربة ؟

أما شخصية "أسامة" ، فنقرأ بتعجب وتعطف هذه فيها / للصفحات التي يتحدث عن نفسه ، بكل صراحة وبشيء من الشعر: أشير هنا إلى مغامرات الصيد الطويلة مع الأب والإخوان ، المتقطعة في أوقات الصلاة ، كما أشير إلى تصوير المناظر حول "شيزر" والعيش في قصر العائلة ، وتحته في القرية ، على ضفة العاصي ، بجانب القنطرة والطاحونة ؟ أشير إلى أطباق الليل ، حين تسمع أصوات الطيور المغنية في سكون الظلام ، على طول الأنهار .

محارب ؟ ديبلوماسي ، سياسي كاتب ؟ ما هذا كله في النهاية ؟ إنسان .